الباب الخامس

تزييف الوعى والعقل العربى

obeikan.com

obeikan.com

الأنظمة العربية تواجه الإعلام المعارض بالحجب

أدان المرصد العربي لحرية الإعلام ما أقدمت عليه بعض الأنظمة العربية من حجب لمواقع قطربسبب تصريحات نسبت لأمير قطر ومع تأكيد وكالة الأنباء القطرية قنا أنّها قد تعرضت للاختراق، نافية بالتالي كلّ ما تمّ نشره غير أنّ ذلك لم يمنع الدول التي تتعارض سياسياً مع قطر وتجد في منصاتها الإعلامية وفي مقدمتها الجزيرة تحريضاً عليها بالاستمرار في المقاطعة الإعلامية وصولاً إلى المقاطعة السياسية التي ما زلنا نرقب تداعياتها!.

إلا أنّ حمى الحجب التي بدأت من المنصة الالكترونية لقطر، التي وضعت الحريات الإعلامية وحرية الرأي على المحك، انفجرت في مصر، التي أصدرت قراراً بحجب 21 موقعاً أما أهم المنصات الإعلامية الالكترونية فهي الجزيرة نت وقناة الشرق ومصر العربية والشعب وعربي 21 ورصد وحماس أون لاين، إضافة إلى موقع ديلي نيوز بنسخته المصرية ومع أنّ القضية قضية حريات ورأي آخر، إلا أنّ بعض وسائل الإعلام المصرية المؤيدة للنظام قد باركت قرار الحجب مستعرضة ما سمته بـالتاريخ الأسود للمواقع المحجوبة، هذا التاريخ الذي بحسب المتابعين المناهضين للقرار هو عمل صُحَفي، وحق في الوصول إلى المعلومات ومصادرها فيما نفى رئيس وحدة قياس الرأي

العام والإعلام بمركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية أحمد ناجي قمحة أنّ يكون هناك تعارضاً بين قرارات الحجب الأخيرة وممارسة الحريات، لاسيما مع تشويه وتزييف الوعي عن إدراك الحقيقة عبر تلك المواقع والقنوات على مدار اليوم لبث الأكاذيب الممنهجة على حد تعبيره.

وقد أكّدت المنظمة العربية لحقوق الإنسان في بريطانيا أنّ حجب مواقع صحافية وإخبارية عربية، هو تصرف مناهض لحرية الرأي والتعبير وتداول المعلومات ويشكل اعتداء صارخاً على حرية الصحافة والجدير ذكره أنّ ما قامت به هذه الدول العربية ليس جديداً، إذ تتصدر مقدمة الدول الأكثر حجباً للمواقع والصفحات الإلكترونية كل من الصين وسوريا وإيران وأثيوبيا وأوزباكستان وكوبا وفيتنام والسعودية والبحرين وباكستان.

الحجب وحظر المواقع لا يقتصر على مستوى الدول، بل وضمن الدولة الواحدة وإن كان بأساليب أكثر تقليدية، فعلى سبيل المثال قناة الجديد ما يزال بثّها مقطوعاً منذ أكثر من شهر في الضاحية الجنوبية لبيروت وفي بعض مناطق بيروت والبقاع بعد خلافها مع رئيس مجلس النواب نبيه برّي، ممّا ألحق بها ضرراً واسعاً في رمضان فخرجت برامجها من سباق الرايتينج.

ومع كلّ الممارسات التي تقوم بها الأنظمة لكمّ الأفواه، إلا أنّ تصفح المواقع المحجوبة ليس مستحيلاً، إذ يستخدم التقنيون خدمات بروكسي المختلفة في التخفي وفتح المواقع وهذه الخدمات توفرها بعض المواقع بشكل مجاني، عبر إخفاء الـIP الحقيقي للجهاز غير أنّ هذه الخطوات محاطة بالسلبيات، منها عدم الأمان وعدم حماية الخصوصية، إعلانات مزعجة، عدم القدرة على تجاوز المواقع الكبرى.

في المقابل يمكن الاستفادة من مواقع مدفوعة بما يقارب الـ5 دولارات شهرياً، لتوفير تصفح كامل وآمن، أما التطبيقات المجانية الأكثر شهرة، فهي تطبيق Hola الذي يستخدمه أكثر من 100 مليون مستخدم، وهو متوفر بشكل مجاني كما تتوفر منه نسخة مدفوعة لتصفح أفضل، كذلك تطبيق Browsec الذي يتيح للمستخدم مجانية التصفح وحماية الخصوصية ولكل من هذين التطبيقين نسخة لأجهزة الهواتف الذكية.

للوعي الأخلاقي تاريخ فهو مرتبط بطريقة إصلاح وتطوير هذه التربية الأخلاقية نفسها ويرتبط تاريخ الوعي الأخلاقي في العصر الحديث في الغرب بالإصلاح الديني في القرنين 15و16، وبموضوع الغضب الإلهي التي هزت المشاعر والضمائر في ذلك الوقت لكن القرن 18 أثار هذا المناخ الفكري بتطويره لنظرية حول الكون مفادها أن الخالق نفسه الذي

خلق هذه القوانين التي يخضع لها العالم، يلتزم هو نفسه بها كما يلزم كل الآخرين، وكل الكائنات الأخرى بالامتثال لها وفى نفس الوقت تطورت فكرة أخرى مؤداها أن المواطن الصالح الملتزم لا يخشى غضب الله ولا عذاب جهنم، ويسلك في نفس الوقت- وكأنه ليس كائناً طبيعياً خاضعاً لقوانين جامدة لا تتغير.

هذه التحويلات الفكرية تتطلب إيجاد قواعد جديدة وقد اشار نبر لاهوتيو وفلاسفة القرن 18-19 إلى توسيع دائرة الوعي الديني، والعمل على انفتاحه، وإكساب أحكامه طابعاً سببياً حتى يتلاءم مع هذه النماذج والتحولات الفكرية الجديدة.

في هذا السياق تندرج أخلاقيات الواجب كأمر أخلاقي قطعي مطلق عند كانط، وهي الأخلاقيات التي تسلم بالحرية ووجود الله وخلود النفس، لكنها ترى أن الضمير الأخلاقي ليس تبريراً لأفعال المرء أمام الخالق، بل إنه عبارة عن اكتمال وتأمل داخل الضمير أو الوعي في إطار المسؤولية الشخصية وبعد ذلك بدأ المجتمع المدني يولي عملية مراقبة الانفعالات والدوافع القائمة وراء الفعل انتباهاً واهتماماً خاصين وسيتولى التحليل النفسي في مطلع القرن العشرين مهمة خلخلة كل هذا البناء، ودشن عملية تحديث للوعي الأخلاقي الحديث.

وهكذا فالانتقال من تبرير الأفعال أمام سلطة أخلاقية أو دينية خارجية إلى المسئولية الفردية عن الأفعال تجاه المجتمع وتجاه التاريخ يبين أن الوعي الأخلاقي هو جزء من بنية وعي تاريخي منفتح ومتطور .

تخريب العقل العربى

صحيح أن الأزمة التي يواجهها العالم العربي والتي اصطلح الجميع علي تسميتها بالأزمة القطرية ليس لها عنوان واحد أو باعث واحد أو مسرح محدد، وهي في حقيقة الأمر كما وصفها أمين عام الجامعة العربية خلال اجتماعات مجلس وزراء الإعلام العرب، أزمة لها عناوين كثيرة وبواعث متعددة تتفاعل علي مسرح هائل الاتساع يمتد علي مسافة العالم العربي كله، في مشاهد تدمي القلب لمدن وحواضر عربية جري تدميرها ولملايين المشردين العرب الذين أخرجوا من ديارهم، وعشرات الآلاف من الشهداء والقتلي والجرحي، وصراعات تشتعل في معظم أرجاء العالم العربي تتجاوز خسائرها أكثر من تريليون دولار كما قدرها البعض، دون أفق معلوم لنهايتها أو إشارة لقرب حلها!.

وإذا كان العالم العربي في أغلبه يتهم قطر بتمويل جماعات الإرهاب وتسليحها وتدريبها وإعطائها ملاذات آمنة، الأمر الذي جعل رئيس الولايات المتحدة يصفها بأنها الممول التاريخي لجماعات الإرهاب التي دمرت سوريا وليبيا والعراق(فى نظره)، وحاولت تدمير مصر تحت

شعار الفوضي البناءة وسعت إلي شق السعودية وإشعال حرائق الفتنة الطائفية في البحرين تصبح قطر المتهم الأول في عمليات التدمير الواسع التي لحقت بالعالم العربي إن لم تكن الفاعل الرئيسي مهما تعددت أدوات التخريب وتطايرت أسبابه، وما من شك أن عوامل كثيرة ومتداخلة ساعدت قطر علي ارتكاب جرائمها أولها أن قطر ارتضت منذ البداية أن تكون مخلب قط لمصالح دولية ضخمة يهمها تدمير العالم العربي وتفتيت إرادته والسيطرة علي مقدراته ابتداء من إسرائيل إلي أجهزة التخابر الأمريكية التي اعترفت أخيراً علي لسان مدير المخابرات المركزية بأنها وظفت قدرات قطر في مهام متعددة بعضها يتعلق بحماس في غزة ، ربما بدوافع طموحات دولة حباها الله ثروة طائلة من الغاز الطبيعي المسيل تطورت علي نحو خاطئ، أن تبنيها لجماعات الإرهاب يمكن أن يساعد علي تضخيم دورها ويضاعف من تأثيرها في منطقة العالم العربى، ويزيد قدرتها علي ابتزاز أشقائها وجيرانها الأكبر منها (هذا ما تم بثه عبر أبواق التزييف ضمن خطة متكاملة استهدفت تزييف وعي الإنسان العربي وتخريب عقله، ساعد علي رسم خطوطها خبراء عرب وأجانب في سيكولوجية الحشد وهندسة وبناء وتزييف الرأي العام وغسيل أمخاخ الشعوب).

والآن نشهد خطة متكاملة لتزييف الوعي العربي وتخريب عقل الإنسان العربي تقوم علي الأسس والقواعد نفسها، من خلال خطاب

إعلامي زاعق ومختلف عما هو سائد تعددت منابره، هدفه الأول استثمار الأزمات التي يشهدها عدد من البلدان العربية في إذكاء الفتن والانقسامات وتفتيت المفتت كي يزداد تفتيتا، ونشر أفكار التطرف والكراهية والعنف وتقديم الخونة والعملاء وقادة التطرف في صورة أبطال ونجوم يستهدفون التغيير .

فضلا عن بعض الشاشات ومواقع التواصل الاجتماعي التي تجذب أعدادا غفيرة من الشباب، يشكلون أكثر من 60 في المئة من تعداد العالم العربي، يعانون من ضحالة الثقافة وغياب دهشة المعرفة مع غياب عادة القراءة وانهيار مستويات التعليم وندرة قراءة الصحف، همهم الأول أن يحصلوا علي مايتصورون أنه الحقيقة في شكل مختصر ورسائل سريعة الهضم والاجترار، لاتري عقلاً ناقداً أو حصيفاً بقدر ما تربي ببغاوات تنطق بما لاتفهم أو تعرف!.

ومع انتشار ثقافة الحفظ والاستظهار وسيادة التخوين والتكفير وغلبة البضاعة الفاسدة في سوق استهلاكية يسودها الغش نجحت إلي حد كبير عملية تزييف وعي الانسان العربي رغم وجود كثير من الشباب العربي يحسن استخدام عقله ويستطيع فرز الصالح من الطالح والتمييز بين الغث والسمين ومع سطوة هذه المنابر الجديدة علي عقول الأجيال الجديدة، كان من الطبيعي أن تسود الشارع والمكتب والبيت قيم أخلاقية

مختلفة، يزدري فيها الصغير الكبير، ويغيب احترام الابن للأب، ويتضاءل دور الأم المربية لصالح الشارع وشلة الأصدقاء!.

العربي من عمليات التخريب والإفساد، وليكن واضحاً للجميع أننا لانطالب بالحجر علي حرية الرأي أو الاختلاف ولانطارد الرأي الآخر الذي بدونه يصعب التعرف علي الحقيقة، ولانريد المساس بحق النقد الذي لاينبغي تحصين أي مسئول عربي من ضرورته ضماناً لصحة المسيرة الوطنية، فقط نطالب بالحفاظ علي معايير المهنة واحترام قيم الصدق والتدقيق وحق المواطن في أن يعرف ويشارك، وجميعها يدخل في إطار المعايير الاخلاقية التي تحافظ علي شرف المهنة ومنع سوء استخدامها لأهداف رخيصة وخطيرة.

العرب وغياب الوعى العلمي

نواجه أحياناً سؤالاً وجيهاً: لمن تكتبون؟ تجهدون أنفسكم بتحليل هذه الظاهرة أو تلك وترفعونها إلى مستوى الوعي النظري في الوقت الذي مازال العديد بل والعدد الأكبر من الناس يعتقدون فى خرافات ما أنزل الله بها من سلطان مازالت الأكثرية الساحقة ما دون الوعي العلمي فى العالم وغالباً ما يأتي جوابنا بسيطاً: نحن نكتب كي نحرر الناس من الأفكار المشبعة ذات الطبيعة الخرافية ولكن بماذا تجيب إذا وجدت جزءاً كبيراً

ممن يسمون بالنخب مازالت تعتقد فى أوهام يدحضها العلم، ومازالت دون مستوى الوعي العلمي فى العالم؟ .

كيف نفسر المفارقة التالية: إنك لتجد أكثر الناس معرفة بالعلم الطبيعي أشد الناس تمسكاً بالوعي ما قبل العلمي؟ فإن كنت من أصحاب الوعي العلمي أن تتأمل شهرة المنجمين وما يسمى بالفلكيين والمشعوذين في عالمنا العربي حتى ينتابك اليأس أحياناً من أحوالنا، أو تفقد الثقة بقدرة أفكارك على زعزعة الأوهام المستحكمة والمتحكمة بأوساط متعددة من البشر لدينا وما كنا نجزم بما سبق لو لم نشاهد سقوط الوعي العربي، حالات الوعي ما قبل العلمي لدى بعض من النخب الأكاديمية ولا بأس أن أورد بعضاً من هذه الحالات.

لقد دخلت مكتب أحد الأصدقاء فوجدت مجموعة من الزملاء متحلقين حول مدع بمعرفة الغيب وما تضمره النفس أجل لقد سحر هذا الأفاق الحاضرين بألاعيبه وخلق لديهم نوعاً من الحيرة والتصديق ولعمري إنهم لو فكروا قليلاً تفكيراً منطقياً وعلمياً، وتأملوا حركات المشعوذ وخفته لاكتشفوا كذبه ودجله وقد قيل لي إن لهذا الدجال حظوة في كل أنحاء الوطن العربي خاصة لدى الطبقة الثرية .

لذلك من العبث الذي لا طائل منه إقناع المؤمنين بالخرافة من العامة أو الفئة المثقفة بأن ما يؤمنون به مضاد للعلم بل تراهم يؤكدون أن

شواهد ماسبق بوصفها أوهاماً ، دليل على عجز العلم، وأن وراء هذا الواقع أموراً لا يستطيع العقل أن يصل إليها إذاً، المشكلة كما أعتقد لا تكمن فقط في إبراز تناقض الأوهام مع العلم لكن هذا الأمر لا يأتي إلا في شرط تاريخي يسمح بنشر الوعي العلمي، وشرط اجتماعي يحرر البشر من الشروط الاجتماعية الاقتصادية التي تلقي بهم في عالم الوهم وإلى شرط قائم في إشاعة الحرية التي تسمح بنشر المعرفة وتعميقها دون رقيب ودون الأخذ في الاعتبار سلطة العامة وممثليهم من الخاصة .

والحق أننا في الوطن العربي نعرف مظاهر العلم ولا نفهم منطق العلم ففي البيت نربي الأطفال على الخوف من الأشباح وننمى فيهم رعباً من كائنات لا مرئية قد تظهر لهم في الظلام أو في الخرائب أو من بين القيود ناهيك عن أن البنية الذهنية السائدة اجتماعياً تخلق قابلية لدى المتعلمين لتصديق بعض الكتب التي ومع الأسف تنشر هنا وهناك حول هذه الأمور الوهمية إننا ولا شك لا نستطيع أن نقتلع الأوهام من أذهان الناس، بمجرد رغبتنا في ذلك، لكن نظام التعليم مسؤول مسؤولية مباشرة عن تربية الإنسان العربي فقبل أن ندرس للطالب النظريات العلمية الفيزيائية والبيولوجية والكيمائية إلخ يجب أن نحضر وعيه لقبول حقائق العلم وهذا غير ممكن إلا بتعليمه أولاً أسس الوعي العلمي .

مايجب أن نعلمه أهمية مبدأ السببية كمبدأ في الطبيعة والإنسان والمجتمع، لا خارج هذا العالم، أن نعلمه أن العقل قادر على معرفة العالم، وأن غير المعروف قابل للمعرفة، فإذا أدرك الطالب أن الطبيعة تسري وفق نواميس طبيعية حلنا بينه وبين التفسيرات الخرافية لأحداث الطبيعة وإذا عرف أن المرض هو ثمرة لعلة طبيعية، أدرك أن الشفاء لا يكون بأية خزعبلات لهذا المشعوذ أو ذاك .

لا شك أن التجربة الإنسانية المعاصرة تميل إلى تعزيز الوعي العلمي المنطقي بالعالم، ولكن إذا انتظرنا التجربة وحدها كي تكون دليلاً على دحض الأوهام فسننتظر طويلاً كي نحرر الوعي من الأوهام فلقد مضى ردح طويل من الزمان على أهل إحدى القرى في حوران مثلاً، وهم يعتقدون أن قريتهم محمية من ضريح الإمام النووي، وأن العدو الصهيوني لا يستطيع أن يقصف القرية بالطائرات لأن طيار العدو سيرى القرية بركة ماء ومرت الأيام وجاءت حرب 1967، فإذا القرية تقصف بالطائرات الصهيونية عندها أدرك أهل القرية أنهم كانوا واهمين وتحرروا من وهمهم بعد هذه الحادثة لكن أوهاماً كثيرة لا تستطيع التجربة أن تقلعها من أذهان الناس ولقد شاهد عدد كبير من الناس برنامجاً تلفزيونياً حول كيفية إخراج الشيطان من جسم إنسان مريض نفسياً، عن طريق التمتمة والضرب المبرح، هذا في وقت انتشر الأطباء في كل أنحاء البلاد شرقاً وغرباً ومرة أخرى أقول إن تحرير الإنسان

العربي من الأوهام عملية تاريخية، اجتماعية، سياسية، تربوية طويلة، وذات علاقة بالتقدم التاريخي الذي حتى الآن تحول السياسة دون البدء فى إنجازه.

أزمة الثقافة العربية

تتجلى أزمة الثقافة العربية أيضاً في انعزالها العضوي عن الواقع فنص القدماء، وهو المكون الرئيسي فيها، نص جاهز تكوّن في ظروف تاريخية ولا يعبر عن الواقع المعاش إلا بعد قراءة وتأويل وإسقاط وإعادة كتابة ونص الغرب الحديث كذلك نص جاهز سلفاً تكوّن في ظروف الغرب الحديث، ولا يعبر عن الواقع المعاش إلا اجتزاءً وانتقاء كعملية زرع أعضاء غريبة في الجسم تحييه مؤقتاً لكنها لا تعيش فيه لأنها لا تنبع منه، تنجح على الأمد القصير ولكنها تفشل على الأمد الطويل لم تحول الثقافة العربية الواقع المباشر إلى نص محكم جديد، يعبر عنه ويوجهه ويؤثر فيه تركت الواقع للخطابة السياسية لتزييف الوعي لصالح السلطان ولما كان الله والسلطان في الثقافة الشعبية شيئاً واحداً كانت مهمة الخطاب الديني السياسي الانفعالي الإنشائي تزييف للواقع وبالتالي بقائه قابعاً تحت الهيمنة الكاملة للنص القديم الموروث أو الهيمنة الجزئية للنص الجديد الوافد ولا يجد نصاً جديداً يعبر عنه تعبيراً محكماً مباشراً فيه أحكام الخطابين الموروث والوافد وفيه مباشرة

الخطاب الديني والسياسي ولما كان الواقع هو ذاته نص مباشر، مصدر كل نص ونشأته، ظل الواقع في الثقافة العربية بلا قراءة وبلا صياغة فتأزم واستعصى وكان الواقع قديماً يتحول إلى نص في أسباب النزول وتعاد صياغته طبقاً للتطور والزمان في الناسخ والمنسوخ وكان الواقع الغربي حديثاً يتحول إلى نص جديد بعد القطيعة مع أرسطو والكنيسة بعد اكتشاف الزمان والتاريخ ولا يعني تحويل الواقع المباشر إلى نص ثالث جديد وإغفال النصين القديمين، الموروث والوافد، إذ يعمل النصان القديمان خاصة الموروث في اللاوعي النظري كعامل مساعد على التنظير، وكأداة للتعبير عند الفكر والإيصال للجماهير التي ما زالت ترتبط بالموروث في ثقافتها الوطنية كما ترتبط النخبة بالوافد في ثقافتها الجديدة ويستمر ذلك لعدة أجيال حتى تتحول ثقافة النص إلى ثقافة العقل، ويقوم التنظير المباشر على البرهان الخالص.

يفرض الواقع العربي نفسه على الفكر العربي في مجموعة من التحديات التي تدفع إلى الاستجابة وأولها تحرير الأرض فما زالت الأراضي العربية محتلة في فلسطين وسبتة ومليلة في المغرب وغيرها لقد قامت حركات التحرر الوطني ضد المحتل الأجنبي، ونشأت دولنا ومازالت الانتفاضة في الأراضي المحتلة والمقاومة في جنوب لبنان من دون تأسيس في الثقافة العربية لقد تم احتلال الأرض بلاهوت الأرض وجعل الله والشعب والأرض ثالوثاً جديداً لا تنفصم عراه في حين أنه في

ثقافتنا الله ليس كمثله شيء، منزّه متعال، لا يوجد في محل، وقائم بالنفس ألا يمكن للثقافة العربية المعاصرة خلق لاهوت مضاد للأرض، وإيجاد صلة بين الله والأرض لا تنفصم عراها؟ فمن يحتل الأرض يحتل الله وما دمنا نؤمن بالله فإننا نؤمن بالضرورة بالأرض وهناك أيضاً بقايا النص القديم في اللاوعي النظري في (إله السموات والأرض)، (رب السموات والأرض)، (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله) التي يمكن من خلالها تأسيس عقيدة الأرض في أصول الدين الجديد كما أسس القدماء عقيدة التوحيد أو نظرية الذات والصفات والأفعال طبقاً لحاجتهم للحوار مع ديانات الثنوية والتثليث في علم أصول الدين القديم لا يكفي الجهاد، فالجهاد دعوة عملية للمقاومة وليست تنظيراً مباشراً من الثقافة العربية ضد احتلال الأرض والمقاومة بل إنه يمكن إعادة بناء الثقافة الموروثة كلها ابتداء من هذا التنظير الجديد إذ تسبق الطبيعيات والإلهيات في علم أصول الدين وفي الحكمة، والمصلحة أساس التشريع في عمل أصول الفقه، والحق والخلق شيء واحد في التصوف، وأولوية الواقع على الفكر في أسباب النزول، والمتحول على الثابت في الناسخ والمنسوخ لا يكفي أن يكون لدينا شعر الأرض، وفرقة الأرض، وغناء الأرض فالأدب مادة أولية يحولها الفكر إلى تنظير الأدب مباشرة والفكر توسط أما ثقافة النخبة التي أصبح فيها الوافد مزاحماً للموروث طاغياً عليه أو بديلاً عنه فإنها أيضاً تستطيع تأصيل ثقافة الأرض فهناك لاهوت

الأرض في اليهودية أولا ثم في المسيحية ثانياً إن تأليه الأرض قد يفيد في تحريرها، وتقبيل الأرض، وحفنة رمل من الأرض المحتلة وشربة ماء من بئر في الأرض كمحراب جديد قد يساعد على إطلاق شاعرية الأرض عند الجماهير والنخبة حتى تتحد الثقافة العربية بواقعها، ويجد تحدي واقعها فيها واستجابة لها.

وبالإضافة إلى حرية الوطن المهددة من الخارج هناك أيضاً حرية المواطن المهددة من الداخل فالحريات العامة هي التحدي الثاني للثقافة العربية فبالرغم من أن الليبرالية كانت نمطاً للتحديث في فكرنا العربي المعاصر إلا أن أزمة الحريات العامة تفاقمت فقد امتلأت السجون بالمعتقلين والخصوم السياسيين وغابت حرية التعبير في الصحافة وجميع وسائل الإعلام ومنعنا من حق تكوين الأحزاب والتعدد الحزبي وعزت الانتخابات الحرة وتم تزييفها أو إلغاء نتائجها، ومصادرة الحريات، والعمل بقوانين الطوارئ لا فرق في ذلك بين قطر عربي وآخر إلا في الدرجة وليس في النوع ولا يرجع الأمر إلى مجرد أنظمة الحكم وقوانينها الحالية المقيدة للحريات بل ربما يمتد الأمر إلى جذور تاريخية لأزمة الحرية والديمقراطية في وجداننا المعاصر في استنباط العقل الحقائق من مصادر معطاة سلفاً، ومن نصوص ثابتة على العقل إيجاد براهين على صحتها وصدقها ومن ثم أصبح العقل تابعاً للسلطة وقد يرجع الأمر إلى التصور الهرمي للعالم الذي يعطي القمة أكثر مما يعطي

القاعدة، وإلى التصور الرأسي للعالم الذي يجعل العلاقة بين الطرفين الأعلى والأدنى وليس التصور الأفقي للعالم الذي يجعل العلاقة بين الأمام والخلف فيصبح الأعلى هو الأمام والأدنى هوالخلف، وأن الحقيقة المطلقة تمتلكها فرقة واحدة ورأي واحد، وبالتالي ضاع منا حق الاجتهاد والاختلاف في حين توجد تصورات أخرى موروثة لم تعش كثيراً تقوم على أن الإنسان حر عاقل، مختار مسؤول، وأن عقله قادر على التمييز بين الخير والشر، وأن صفات الأفعال في ذاتها، وأن قوانين الطبيعة ثابتة، وأن الساكت عن الحق شيطان أخرس، وأن الدين النصيحة، وان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أصول الدين، وأن الشهادة ليست فقط باللسان بل على العصر، وأن فعل التوحيد فعلان: نفي في لا إله وإثبات في إلا الله، لا تسبق نعم، الرفض يأتي قبل القبول وفي ثقافة النخبة، الوافد الغربي، ما أكثر ما قيل العقل وحرية الإرادة من ديكارت حتى هوسرل، من بداية الوعي الأوروبي حتى نهايته والعدالة الاجتماعية هى التحدي الثالث فنحن أمة يضرب بها المثل تضم أغنى أغنياء العالم من بيننا من يموت بطنة وشبعاً ومن بيننا من يموت جوعاً وقحطاً وما زلنا نتخفى وراء الزكاة والتبرعات وأعمال الخير لإضفاء الشرعية على مظاهر الكسب غير المشروع أو نشوه المذاهب الاشتراكية بأنها مادية وإلحاد وضد الدين قد تكون هناك موروثات تمنع من تحقيق العدالة الاجتماعية مثل خلق الناس درجات متفاوتة في الرزق

وتقديره مسبقاً، فالسعيد من سعد فى بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه، وأن كل ما يأتي للإنسان رزق، وكل رزق حلال، وأن الفقر والغنى من الله، وأن الأسعار والأرزاق من الله مع أن هناك نظريات أخرى موروثة لا تظهر إلا كدعاية وخطابة وإعلان وتبرير للنظم السياسية التي تختار اشتراكية الدولة طريقا لها مثل نظرية الاستخلاف، وأن الملكية وديعة، للمالك حق الانتفاع وحق الاستثمار وحق التصرف، وليس له حق الاكتناز وحق الاحتكار وحق الاستغلال، وأن العمل مصدر القيمة، وأن المجتمع الواحد الذي فيه إنسان واحد جائع تبرأ ذمة الله منه، وأن ليس منا من مات شبعان وجاره طاو، وأن الناس شركاء في ثلاث، الماء والكلأ (الزراعة) والنار (الصناعة)، ملكية عامة لوسائل الإنتاج وما أكثر المذاهب الاشتراكية في الوافد، دينية وأخلاقية وعلمية متطورة وديمقراطية ألخ.

والتجزئة هى التحدي الرابع لنا في واقعنا العربي المعاصر وتشمل القطرية والحروب الأهلية ومعارك الحدود التى قسمت الأمة إلى أقطار متخاصمة، والقطر إلى طوائف متناحرة، والطائفة إلى عشائر متنافسة، كل منها يستبعد الآخر ويستعديه مع أننا أمة واحدة في الموروثات المعيشية وحدة الأمة انعكاس لوحدة العقيدة، تعبير في الواقع الاجتماعي عن عقيدة التوحيد ولكن ضمور التوحيد وتحويله إلى رقم عددي للإله الواحد جعل القبلية والطائفية والعشائرية والقطرية هي السائدة في

الواقع وما أكثر صور التوحيد في الموروث الثقافي القديم، التوحيد بين قوى الإنسان القول والفعل، الفكر والوجدان، الأسرة الواحدة، الأمة الواحدة، الخلق الواحد، الهدف الواحد، الغاية الواحدة وما أكثر فلسفات التوحيد في الوافد عند اسبينوزا وفشته وشلنج وهيجل.

والتبعية في الغذاء والسلاح والثقافة، والعلم هي التحدي الخامس في الواقع العربي نستهلك أكثر مما ننتج، ونأكل أكثر مما نعمل، ونحارب بما لم تصنعه أيدينا وتنميتنا لا تعتمد على الذات، غير مستقلة، تعتمد على المعونات من الغير لدرجة امتهان الإرادة الوطنية والتحالف مع الأجنبي ضد الوطني، وحاربنا مع العدو ضد الصديق، وعادينا القريب لصالح الغريب وهناك تصورات موروثة تجعلنا أكثر اعتماداً على النفس واتجاهاً إلى الطبيعة من أجل استعمال قوانينها، والعمل والسعي في الأرض، وزراعة الصحراء فاللون الأخضر، للعشب والزرع، أكثر قيمة من اللون الأصفر للهشيم والصحراء الجرداء الماء ينزل، والأرض تنبت، والفلك يجري في البحر، والحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ومن الجبال بيوت، ومن الجلود سكن وما أكثر الفلسفات الوافدة في السيطرة على الطبيعة وتسخيرها لصالح الإنسان والمجتمع واستثمار ثروات الأرض هناك تعليمات تجعلنا نتعاون فيما بيننا، ونشتد على الأجنبي (أشداء على الكفار، رحماء بينهم)، والتآخي كما بين الأوس والخزرج، وعدم جواز خصام الأخ لأخيه أكثر من ثلاث ليالٍ .

والتغريب والتبعية إحدى مآسينا والتحدي السادس، فقدنا استقلال الإرادة بعد أن حصلنا عليه، وضاعت الهوية، وعزت الأصالة، وأصبح كل من يستمد علمه وثقافته وهويته من الخارج، وربينا لدى أنفسنا مركب نقص كما ربي الآخر في نفسه مركب ،عظمة أساليب الحياة والعمارة والفنون تنوعت إلى حد التضارب وطمس الهوية كان ذلك نتيجة للانبهار بالغرب واحتقار الذات، وتقليد الآخر وضياع الهوية وفي موروثاتنا ما يساعد على تأكيد الهوية بالمفاضلة مع الآخر، والتمايز عنه وما أكثر نقد التقليد والتبعية، أن إيمان المقلد لا يجوز، والتقليد ليس مصدراً من مصادر العلم وما أكثر نقد سلطة القدماء على الوافد، والثورة على القديم، ورفض الموروث، والاعتماد على الذات من أجل الجد والإبداع، أنا أفكر إذن فأنا موجود .

وأخيراً، ما زالت سلبية الجماهير وحيادها ولامبالاتها تمثل التحدي السابع الرئيس للثقافة العربية فبالرغم من سطوة الموروث لدى الجماهير، وحضور الوافد لدى النخبة إلا أن الجماهير تظل عازفة عن المشاكل في أي حركة شعبية فالموروث إن عبر عن ماضيها فإنها به لا تحل مشاكل حاضرها والوافد إن عبر عن مستقبلها فإن الهوة بينه وبينها ما زالت بعيدة تنأى الجماهير عن السلطة فهي قاهرة لا تعمل لصالح الناس وتنأى عن المعارضة لأنها ضعيفة وهزيلة تتاجر بأقوات الناس، ولا تحل شيئاً لأن عينها على السلطة ومهما وقعت من أحداث

أمامها فإنها لا تتحرك وإن تحركت فانتفاضة وقتية مثل انتفاضات الخبز والغلاء كبالون اختبار أو فقاقيع هواء سرعان ما تتكسر على شاطئ الفتور واللامبالاة وفي الموروثات ما يساعد على حشد الناس، وتجنيد الجماهير، فالأمة خير أمة أخرجت للناس، تحمل الأمانة، وتبلغ الرسالة، وعليها مسئوليات الدفاع عن الحق وتبليغه للناس، هي خليفة الله في الأرض، تحقق وحيه كنظام مثالي للعالم ويمتلئ الوافد أيضاً بفلسفات تحقيق المثل الأعلى، وتطبيق كلمة الله في الأرض وتجسيد الروح في التاريخ، كما أنه زاخر بفلسفات الالتزام والفعل والتقدم والمسئولية وتحقيق رسالة الأمم الثقافية والفنية.

ضعف المؤسسات والوعي بالثقافة

البنية الداخلية ليست وحدها المسؤولة عن أزمة الثقافة العربية بل أيضاً البنى الخارجية وفي مقدمتها ضعف مؤسساتها الثقافية لأنها جزء من الدولة التي لا تدين لها الجماهير بالولاء الدولة قاهرة ووظيفة مؤسساتها الثقافية تبريرها وإضفاء الشرعية عليها والدفاع عنها ومن هنا يأتي الخلط بين الثقافة والإعلام، واعتبار الثقافة إعلام الدولة للناس، واعتبار الإعلام ثقافة الدولة للناس، فضاعت الثقافة، وعزف الناس عن الإعلام،وتحولوا إلى الإذاعات الأجنبية يستقون منها أخبارهم، ويتحسرون على انحسار الذوق الرفيع والثقافة الجادة في

العصور الخوالي وما أسهل في نظام حر منتخب وفي دولة شرعية تقوم على العقد الاجتماعي أن تستقل المؤسسات الثقافية عن النظام السياسي، وأن يتم التخطيط الثقافي على الأمد الطويل طبقاً لحاجات الجماهير ومستقبلها دون الارتباط بسياسة الدولة أو شخصية وزير الثقافة ونشاطه واهتماماته وتصوراته للثقافة والفن وتقوم مؤسسات الدولة التابعة بالتأييد دون النقد، وتعمل بالأمر من دون الرأي تغرق الشعب في البرامج الدينية والترفيهية، كبت وإطلاق، حرمان وإشباع، ضبط اجتماعي وتسيّب أخلاقي تملأ أجهزة الأعلام المرئية والمسموعة بالمسلسلات والأفلام والمباريات الكروية لملء الفراغ الثقافي والسياسي عند الناس لا حل لذلك إلا استقلال المؤسسات الثقافية عن النظم السياسية ومؤسسات الدولة الرسمية الثقافة مثل الجامعة والقضاء والصحافة مؤسسات مستقلة حتى تستطيع أن تحاور وتبدع حينئذ يتكون جيل من المثقفين المستقلين، كما يتكون جيل من الباحثين والعلماء، وكما يحكم القضاء بالعدل بين الخصوم، وكما تستقل الصحافة حتى تواجه بالرأي، وتكشف تقصير المسئولين الرسميين دفاعاً عن مصالح الناس.

ولا تنشط ثقافة إذا ما سيطر باستمرار على أمورها وتوجيهها ومراكز قراراتها الأجداد والآباء وكانت في يد الأجيال السابقة فالثقافة حركة تواكب حركة المجتمع تنعزل الأجيال الجديدة عن الثقافة لأنها لا تعبر

عنها فإذا ما كونت ثقافة مستقلة اعتبرت ثقافة مضادة هامشية تعبر عن الضياع والحزن، ثقافة الطريق خارج ثقافة المؤسسات ووضعت العراقيل لتكوين اتحادات أو جمعيات ثقافية وأدبية مستقلة عن اتحادات الدولة وجمعياتها وفي غياب أهداف ثقافية وطنية عامة تنشأ الشللية داخل مؤسسات الدولة وخارجها، ويندرج المثقفون في أحزاب ثقافية يعارض بعضها بعضاً للوصول إلى السلطة في الثقافة واليد الطولى والصوت الأعلى فيها وان استحال ذلك فالمجال مفتوح للنجومية الفردية دون تخطيط مشترك أو عمل جماعي كما غلب على حديث المثقفين وكما هي العادة كثرة القول وقلة الفعل، قصور في الهواء بديلاً عن قرى الواقع الأليم.

وكرد فعل على الثقافة الرسمية المضادة نشأت الثقافة السرية، وأصبحت أكثر تأثيراً في الناس، وأكثر التزاماً بقضاياهم تعطيهم ما لم تعطه الدولة: الالتزام، الجدية، الرسالة، الوفاء، الصدق، الشجاعة، الشهادة، وتستطيع الثقافة أن تكون الموحد للثقافة الرسمية والثقافة المضادة والثقافة السرية، وتملأ هذا الفراغ بين الثقافات الهامشية الثلاث وتذيبها فيه بالتفاعل مع ثقافة الناس، تفاعل مع الموروث والوافد والواقع المعاش تعبر عن هذه الثقافة الأمثال العامية وسير الأبطال والأزجال والملاحم الشعبية التي خلدت حكمة الشعب التلقائية، ومن خلال الثقافة الوطنية يتم الحوار الوطني بين جميع التيارات الفكرية

والسياسية والرسمية منها والشعبية حتى ينشأ الوفاق الوطني، وتقوم الوحدة الوطنية من خلال التعدد الثقافي، المشروع الوطني القومي الموحد مع اختلاف الأطر النظرية وهو ميثاق ثقافي عربي جديد يقوم على حرية التعبير والحوار الوطني والأهداف القومية.

ويتم ذلك كله داخل الجامعات الوطنية والجمعيات العلمية والأحزاب السياسية وتشارك فيه مؤسسات الدولة المستقلة، الصحافة والإعلام والتعليم دون تدخل في مسار الحوار الوطني تدعيماً لرأي ضد رأي آخر أو نصرة لفريق ضد فريق آخر في الجامعة تتولد الثقافة العلمية، وفي الجمعيات الثقافية تتولد الثقافة الأدبية، وفي الأحزاب السياسية تتولد الثقافة الجماهيرية ومهمة الجامعات البحث العلمي ومد الثقافة بمنهج لا يمنح شهادات على التحصيل من أجل الوظيفة وبحثاً عن الرزق ومهمة الجمعيات العلمية، وهي عماد المجتمع المدني، العمل على تكوين تيارات فكرية واتجاهات سياسية ومناهج أدبية وأساليب فنية لإفساح المجال لإبداع الجماهير ومهمة الأحزاب إعادة بناء الثقافة والتحول من تراث السلطة إلى تراث المعارضة، ومن تراث الحاكم إلى تراث المحكوم، من تراث الله والسلطان إلى تراث الجماهير.

والمؤسسات الثقافية من دون الوعي التاريخي بالثقافة تظل فارغة بلا مضمون، معلقة في الهواء بلا تاريخ ولا زمان ولما كانت الثقافة

تعبيراً عن الوعي الثقافي وكان الوعي الثقافي هو وعي تاريخي ارتبطت الثقافة بالمرحلة التاريخية التي تمر بها الأمة فلا ثقافة بلا وعي تاريخي بالمرحلة التاريخية وقد يكون أحد أسباب أزمتنا الثقافية والسياسية هو غياب هذا الوعي التاريخي بالثقافة والسياسة وتتلخص هذه الأزمة في صعوبة الإجابة على سؤال: في أي مرحلة تاريخية نعيش؟.

فبعد عصرنا الذهبي القديم، عصر الإبداع الأول في المرحلة التاريخية الأولى عبر سبعة قرون، ظهر بعدها ابن خلدون، وبعد عصرنا التدويني الثاني، عصر الشروح والملخصات والموسوعات الكبرى، المرحلة التاريخية الثانية عبر سبعة قرون تالية بدأ فجر النهضة العربية الحديثة منذ مائتي عام تقريباً وتعثرت نظراً لأنها كانت نخبوية لم تتحول إلى حركات جماهيرية أو ثورات وطنية ناجحة ومستمرة وكانت تأخذ الغرب نمطاً للتحديث مما أثار حفيظة الحركة السلفية وكانت نسبية تحاول التجديد والإصلاح، إما من الداخل مثل الإصلاح الديني أو من الخارج مثل التيار العلمي العلماني أو من تركيب الخارج على الداخل مثل التنوير فيه مثل الفكر السياسي الليبرالي وكانت الثقافة العربية في جانب والواقع العربي في جانب كانت هناك على الأقل عدم مطابقة أو تجانس بين الاستجابات الضعيفة للثقافة العربية وحجم التحديات في الواقع كنا أشبه بمن يريد صيد أسد بحجارة أو تفريغ محيط بكوب أو هدم جبل

بعصاة وكلما وسعت الهوة بين الثقافة والواقع ظهر العجز، وانزوت الثقافة إلى روافدها، واشتد الواقع تعقيداً، وازداد تأزماً.

ويمكن البداية بترتيب البيت من الداخل، ورصد الاتجاهات العامة للثقافة الوطنية والتأكيد على تعددها ووحدتها، وحق الاختلاف في الرأي من دون تكفير أو تخوين، وضرورة الاتفاق على برنامج عمل وطني موحد يحدد الأهداف الوطنية التي تكوّن ملامح المشروع القومي وتتعدد الأطر النظرية لصياغته وربما أيضا لأدوات تحقيقه .

وهنا تبدو أهمية الفكر السالب الذي يبدو في النزعة النقدية فالهدم يسبق البناء، والنفي يأتي قبل الإثبات؟ ولا يمكن تشييد جديد من دون هدم القديم لقد حاولنا البناء من دون هدم فسرعان ما تهدم البناء لأنه لم تتم قبله مرحلة نقدية للنظم القديمة قضى على النظم الليبرالية لأن الجذور التاريخية للقمع والقهر والتسلط لم تنتزع، ومن منطق الفرقة الناجية يهيمن على الثقافة الوطنية وانهارت النظم الاشتراكية لأننا لم نقض بعد على الجذور الثقافية للرأسمالية والطبقية وانحسر المد القومي لأننا لم نخلص ثقافتنا سلفاً من شوائب الطائفية والعشائرية والقطرية والتجزئة.

المرحلة التاريخية التي نمر بها تتميز بتحول جذري في نظام العالم وانتقال الوعي في مسار التاريخ من مرحلة قديمة شارفت على الانتهاء

إلى مرحلة جديدة بدت تباشيرها وهنا يكون لفظ الحضارة أعم وأشمل من لفظ الثقافة فالحضارة الغربية بدأت في العصور الحديثة في عنفوانها بمرحلة الإحياء، إحياء الآداب القديمة في القرن الرابع عشر بحثاً عن الجذور اليونانية وتفضيل الوثنية الأولى على مسيحية العصور الوسيطة، ثم عصر الإصلاح الديني في القرن الخامس عشر من أجل تخليص الدين مما علق فيه من شوائب التاريخ والعودة إلى الكتاب وحده من دون التراث الكنسي والتأكيد على حرية التفسير من دون احتكاره، وعلى أهمية الصلة المباشرة بين الإنسان والله من دون توسيط رجال الدين، وعلى أولوية التقوى الباطنية على الشعائر الخارجية، وعلى أولوية الوطن على الأممية الدينية ثم جاء عصر النهضة في القرن السادس عشر من أجل التحول من القديم إلى الجديد، ومن السلطة إلى العقل، ومن النص إلى الواقع، ومن الله إلى الإنسان، ومن النفس إلى الجسد، ومن الخلف إلى الأمام ثم تأكدت العقلانية في القرن السابع عشر، لا سلطان يعلو فوق سلطان العقل، ولا نظام يفوق نظام الطبيعة ثم تحولت العقلانية العلمية الفردية إلى تنوير اجتماعي سياسي شامل من أجل إقامة المجتمع على مثل التنوير: العقل (العلوم الرياضية)، والعلم (العلوم الطبيعية)، والحرية (الإنسان)، والعدل والمساواة (المجتمع)، والتقدم (التاريخ) وقامت الثورة الفرنسية تحقيقا لهذه المثل ووصل الوعي الأوروبي إلى الذروة في القرن التاسع عشر، المثالية والوحدة

المطلقة، نهاية التاريخ، وتحقيق المثال في الواقع، وتجسيد الله في الدولة خفقت الروح، وقلت قيمتها، وهدأت الاندفاعة الأولى بدأ الوعي الأوروبي ينقد نفسه، ويهدم ما بناه، ويراجع إنتاجه، وكأنه يندم على ما فات فينتقل من المعقول إلى اللامعقول، ومن القيمة إلى اللاقيمة، ومن المعنى إلى اللامعنى، ومن الاتساق إلى التناقض، ومن الأمل إلى اليأس، ومن الوضوح إلى الاشتباه، ومن التركيب إلى التفكيك، ومن الإنسان المثالي إلى العنصرية الحضارية حتى انتهى القرن العشرين إلى الشك والنسبية واللاأدرية والعدمية وتحدث الفلاسفة المعاصرون عن مظاهر العدم في الوعي الأوروبي: انقلاب القيم، إفلاس الفلسفة، موت الإله، موت الإنسان، ضياع عالم الحياة، الموت في الروح، تفكيك كل الأبنية القديمة بما في ذلك العقل نفسه والكلمة ذاتها.

وفي الوقت نفسه ينهض الشرق قامت ثورة الصين وتحررت الهند، ونهضت اليابان، وتم تصنيع دول شرق آسيا، وقامت الثورة في إيران، وتحررت الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى، وبدأت نظريات ريح الشرق تصف مسار الحضارة الإنسانية عبر التاريخ بدأت الحضارة في الشرق ثم انتقلت إلى الغرب، والآن تأفل في الغرب وتعود إلى الشرق من جديد وتنضم مع الشرق أفريقيا وأمريكا اللاتينية فيما يسمى بالعالم الثالث فقد تحررت شعوب أفريقيا، وزالت العنصرية في جنوب أفريقيا، وتمثل منظمة الوحدة الأفريقية وعياً إنسانياً جديداً لأفريقيا والعالم

كالبشرية في الأطراف خارج المركزية الأوروبية، ويتطلعون إلى مستقبل جديد للبشرية خالٍ من الجوع والقحط والعنف والهيمنة والاستغلال والحروب ويتوسط العالم العربي هذا العالم الجديد ويستطيع بما له من رصيد تاريخي وإمكانات مادية بشرية أن يبلور إنسانية جديدة وأن يظهر فيه المسار الجديد لمستقبل البشرية .

opeikan.com